رحلة إلى مدينة جنيف

الثقافة السويسرية: الهمس الخفي في خلفية المشهد الحضري .. صفر! «٢»

د. وليد أحمد السيد

أقلعت بنا الطائرة الصغيرة في سماء مدينة لندن باتجاه المدينة السويسرية. وغرق كل من الركاب في بحر من الأفكار وقد تاهت النظرات عبر كوات الطائرة الزجاجية الصغيرة تجاه الأفق وعبر الغيوم الربيعية الخفيفة. في هذه الأثناء دارت الساندوتشات الخفيفة الصغيرة بين المسافرين، وراحت أيدي المضيفات تمتد للركاب،الذين كان من الواضح أن بعضهم قد ارتاد هذه الرحلة عشرات، إن لم يكن مئات المرات، فقد راحت أيديهم تعبث بأزرار لوحة التحكم بالكمبيوتر المحمول أمامهم في حركات محمومة كأنها تسابق سرعة الطائرة الصغيرة وقبل الوصول إلى الوجهة المعلومة – فيما رفع بعضهم يده اعتذارا عن قبول الساندوتشات الصغيرة، التي كانت لا تتناسب مع ذوقهم في الأكل، ولا تسمن ولا تغني من جوعهم، وكأنهم آثروا الانتظار حتى الوصول للمدينة السويسرية سعيا وراء وجبة ساخنة أكثر إشباعا وإمتاعا.

الهمس الخفي ....صفر

بعد نحو ساعة أو تزيد، وصلنا مطار مدينة جنيف. تسحرك الثقافة السويسرية منذ قدومك للمطار،هناك شيء ما غامض يزوغ عن إدراك الحواس الخمس للوهلة الأولى، لكنه بسيط وجليّ للغاية، وإن كان خفيا عن الإدراك السطحي بعض الشيء: ليس هناك صوت مزعج في «خلفية المشهد» برمته. في كل الأسفار وإلى كل الأقطار يشعر المسافر بأن هناك ثمة «ضجيج خفي خلفي» يتفاوت بدرجات بين مدينة ومدينة. وإن شئت فهناك ثمة تدريج لهذا الضجيج والتلوث الصوتي من صفر إلى عشرة مثلا، إذ تجد أن مدنا مكتظة كالقاهرة مثلا تحصد العشرة كاملة،ودفعة واحدة،وبدون منازع، فيما تتدنى هذه النسبة من الضجيج والتلوث الصوتي الذي تحسه كأنه «الموسيقى التصويرية» المصاحبة للمشهد الحضري،لتصل إلى ما دون الخمسة في مدن مثل عمّان والرياض، وتصل لما يقارب الأعشار في مدن كمكة والمدينة المنورة (سبب الضجيج في هذه الحالة هو مطارق الإنشاءات التي تطالع الزائر والحاج والمعتمر في الواجهة الأمامية (!) والخلفية للمشهد نهارا – بينما تغرق المدينتان في سكون روحاني غامر ليلا ليصل مستوى الضجيج إلى ما يقارب الصفر). في مدن كمدينة مسقط أو صلالة،حيث هناك أمواج البحر المتلاطمة مع سواحل المدينتين،هناك رتابة ورونق الطبيعة مع ما نسجته يد الإنسان في مقدمة مشهد طبيعي ساحر من الجبال التي تقف صامتة في خلفية المشهد الطبيعي والحضري برمته.

في مدينة جنيف لا تحس بهذا كله، وكأنك قد دخلت غرفة محكمة من العزل الصوتي خالية نقية من تلوث الصوت بالمكان، لا تحس بذلك الصوت الخفي الذي يقرع أذنيك في «همس خفي» كهمس الوسواس الخناس. لا تحس بذلك مطلقا. فالمكان قد انسجمت أجزاؤه الطبيعية والصناعية معا في تناغم رتيب بحيث نزعت منه «أزيز الصوت الخفي» الذي يهمس في أذنيك وفي باطن عقلك الخفي أينما حللت في مدن أخرى. في أية مدينة أخرى، وحتى في خاص الخاص من الخلوات الليلية يظل هناك بقية من شوائب الهمس الخفي الذي تحس به في خلفية المشهد المديني، أو التجربة الخاصة. حتى في بعض رتابة الأجواء ذاتها، يظل هناك امتداد للهمس في البعد الرابع أو الخامس، حتى البعد السادس عشر من هذا الكون الذي أشار إليه العلماء. لكن ذلك كله لا تحس به في مدينة جنيف، إذ تتلاشى الأصوات ويمتد السكون دونما أي صوت كان. لكأنك في هذه الحالة قد دخلت عالما من الوداعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. هذه أولى مميزات هذه الثقافة السويسرية، وهذا ما يجعلها فريدة عن بقية المدن الإنسانية ويضعها على قمة الثقافات وفي مقدمة الحضارات الإنسانية التي نشهدها اليوم بحيث بدت متميزة وذات خصائص نوعية. هي ثقافة تعلي العقل وتستعبد البيئة بحذافيرها لخدمة سيدها الإنسان. ولا عجب أن كانت الدقة عنوانها بحيث تميزت بساعاتها التي تقترب فيها روعة الصناعة لأجزاء من الألف من الوحدة الدقيقة.

في مدينة جنيف، وحيث تطل جبال الألب الضخمة الشاهقة ذات القمم الجليدية من خلفية المشهد البديع على المدينة التي التفت حول بحيرتها التفاف السوار بالمعصم، تتراكم المباني في تنظيم حضري «أوروبي» يعتمد العلاقة المتوازنة بين الكتلة والفراغ العام الذي يشقه منتجات التكنولوجيا بحيث أصبح للقطار الآلي والترام مكان يتوسط الطريق العام ويتقاسم الفضاء العام مع المشاة الذين يقطعون هذا الفضاء بكافة الاتجاهات دون خوف من هذا «الخادم التكنولوجي» الذي يتحكم به سائق، ليسبح الجميع في بحر هادئ متناغم من التناسق والتكامل بين الطبيعي والآلي وما بينهما. وأول ما يستثير الانتباه في هذه الثقافة هو الخصوصية الفردية مقابل الوداعة والألفة. فترى المواطن وقد احتفظ بقدر من الخصوصية، لكن لا يمنعه التفاعل مع التساؤلات والاستفسارات بأدب جمّ قبل أن يعود مجددا لحيزه الخاص. وفي ذات الوقت قد يستثيره مشهد أو حركات طفل ظريفة، وبخاصة النساء كما كان الحال مع موسى، لكن كل ذلك يبقى في دائرة احترام الخصوصية إن رغب صاحبها بذلك. هو حالة شديدة الأدب في الفضاء العام، بين التطفل المزعج وبين الانزواء الحادّ المذموم. والأهم من ذلك كله هو حالة من السكينة والأمن والأمان – في الليل قبل النهار.

ولذلك فبعد وصولنا المطار، لاحظنا هذه الحالة من الهدوء شبه المطلق. وفي المطار يمكن الحصول على تذاكر مجانية لكامل فترة الإقامة تسمح بالتنقل داخل المدينة واستعمال كل الوسائل العامة. وهذه فكرة ذكية للغاية من بلدية المدينة تتيح للزوار استكشاف المدينة مقابل الغلاء الباهظ للمعيشة ووسائل المواصلات. وللأسف خرجنا من النقطة داخل المطار التي يمكننا الحصول بها على هذه التذاكر، فسألنا إحدى العاملات عن تذاكر للوصول إلى الفندق الذي كان في منطقة الحي الدبلوماسي حيث السفارات ومباني المنظمات الدولية كاليونيسيف وعلى ضفاف بحيرة جنيف، والتي للوصول إليها يتعين أخذ الحافلة من المطار، فأرشدتنا العاملة إلى ماكينة شراء التذاكر حيث تم دفع مبلغ باهظ نسبيا مقارنة بأسعار أوروبا ولندن. ولاحقا تم الحصول على التذاكر المجانية من الفندق حيث تقوم الموظفة باستخراج نماذج للتذاكر جاهزة تكتب عليها الاسم ومدة الإقامة، ويستعملها الزائر طيلة فترة زيارته لركوب المواصلات العامة داخل المدينة، وهكذا كان. وبعد وصولنا للفندق الصغير في الحي الدبلوماسي على نهاية شارع يصل لمبنى اليونسيف في محطة حفظها الصغير موسى عن ظهر قلب (Jardin Botanique)، كان الليل قد أرخى سدوله وقد سقطت دفقات من رذاذ خفيف، فترددنا في الخروج لاستكشاف المدينة في ذلك الوقت، وبعد بعض التردد القليل والسؤال والاسترشاد من موظفة الاستقبال بالفندق حزمنا أمرنا ووقفنا على محطة الحافلات المجاورة، وسرعان ما جاورنا امرأة وفتاة، قبل أن تصل الحافلة ويقلنا باتجاه مركز المدينة الصامت نسبيا وقد أغلقت المحال التجارية أبوابها بعد الثامنة مساء. وعلى غير المتوقع والمألوف في بعض المدن الأوروبية الأخرى، كانت الشوارع آمنة فعلا،وتحس ذلك بوضوح من نوعية المتجولين أو حركاتهم او تصرفاتهم العفوية غير المرتبكة أو المتعجلة أو اللاهثة بحثا عن رصيف آمن أو المتلفتة فوق أكتافها كما ترى ذلك في مدن أخرى أقل أمنا أو أكثر خطورة.

في قلب المدينة الساكن، ظاهريا، كانت الشوارع هادئة إلا من بعض الأصوات التي تنبعث من بعض المحلات التي أبقت أبوابها مشرعة. فيما أطلت واجهات العرض المضاءة لتنير بعضا من الشارع الهادئ المنزوي عن الشوارع الرئيسة التي تمر بها الحافلات الطويلة أو الترام الكهربائي التي غدت وراحت تقل الركاب من وإلى مركز المدينة. وعلى ضفتي النهر كانت المباني الضخمة بحجارتها العتيقة التي طرزها أشهر المعماريين السويسريين شاهدا على تطور المدينة ونموها حول ضفاف الماء، وكما هو الحال تاريخيا. وتنتشر العلامات التجارية للساعات السويسرية وبقية العلامات التي أصبحت شاهدا على ثقافة متميزة. ويلفت انتباه الزائر سهولة إدراك تكوين المدينة نسبيا بمعرفة خط الحافلة حيث يقطع البحيرة من الشمال للجنوب. فالمدينة تعتمد في وسائل مواصلاتها على التنقل فوق سطح الأرض بالحافلة والقطار وهما وسيلتان مهمتان للتعرف السريع على التكوين المورفولوجي للمدن، بخلاف ما يسود في بعض المدن الغربية الأخرى من استعمال للقطار تحت الأرض – والذي هو أحد أفضل الوسائل في «تضليل» الزوار وفقدانهم التام للاتجاهات والمسافات والأماكن، فضلا عن تقليل قدرتهم على إدراك الخارطة «الفعلية» للمدينة بناء على شواهد وعلامات وترسيم معالم الفضاءات الحضرية ورسم شبكتها في الذهن، كما يفعل مرتادو المكان من البالغين بعد مرة أو مرات من زيارتها له. في مدينة جنيف كان من السهل رسم خارطة «وادعة» للمكان،والفضاء الحضري،وللثقافة معا. وللحديث بقية.